

حول مقال الدكتور طه حسين

عنه حافظ وشوقي

بقلم الاستاذ محمد خورشيد

أستاذ الأدب العربي

ألقيت الآن من يدى هلال ديسمبر بعدما قرأت فيه مقال الدكتور طه حسين عن الشاعرين الكبيرين حافظ وشوقي ، ذلك المقال الذى رأيت فيه من الاضطراب الأدبى ما حدا بى إلى كتابة هذه المجالة خدمة للأدب والحقيقة .

قبل كل شيء لابد لى من القول بأن الكتابة عن شوقى وحافظ معاً ، ليست من الانصاف والعلم ، والتاريخ فى شيء ، لأنهما يتباينان جداً من حيث متانة اللغة ، والعبقرية ، والإنتاج ، والنشأة ، ولا أنكر أن فى وسع المؤرخ الأدبى المقارنة بين هذين الشاعرين ، ولكنه ينتهى من مقاله دون توفية الموضوع حقته ، لأن المقارنة شيء ، ودراسة الشاعر والبحث العلمى عنه شيء آخر .

يعترف الدكتور طه حسين فى مقاله بأنه كان يؤثر حافظاً على شوقى عندما كانا يرفلان بنوب الحياة ، ويريد - وهو على مقاله - أن يفسى إيناره حافظاً بالمودة والحب الخالص ، ثم يعترف بأن مؤرخ الآداب بنوع خاص يصعب عليه جداً التجرد من عواطفه ، وشهواته ، وميوله ، وأهوائه فى الأدب ، والتمن ، ويقول : « واعلم بعد ذلك أنى إنما ذكرت عواطفى التى كانت تمنعنى على حافظ بالحلب ، والمودة ، وتصرفنى عن شوقى بعض الشيء لئتم أنت ماقد أعجز عنه أنا من الانصاف ، ولتمحو أنت ماقد أتورط فيه أنا من الغلو والاغراق » .

فى هذه العبارات اعتراف صريح باملاء عاطفته عليه مقاله فى حافظ وشوقى ، وهل من الممكن أن يتجرد الانسان من ميوله وعواطفه ويكتبها ما بين طرفة عين والنفثاتها ؟ كان يجب على الدكتور المحترم أن يستبدل الفعلين المضارعين بعد حرفى التقليل فى جملته الأخيرة بفعلين ماضيين ليؤكد لنا عجزه عن الانصاف وتورطه فى الغلو والاغراق .

ومما حيرنى فى مقال الدكتور قوله « تجديد شوقى يستحيل شيئاً فشيئاً إلى تقليد؛ حتى إذا كانت أعوامه الأخيرة كانت فصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدماء من الشعراء ، لا يستر فيه ولا يحتاط ؛ ينشئ القصيدة ، فلا تحتاج إلى تمب أو مشقة ، لتجد القصيدة القديمة التى يحاكيها . سم هذا معارضة، أو محاكاة أو تقليداً ، فذلك عندى سواء ، لأنه ينتهى إلى نتيجة

واحدة وهي أن الشاعر ، قد رجع إلى القدماء يلتبس عندهم مثله الأعلى «
تلك لعمرى كلمات لا يقرها المنطق ؛ وهل للكاتب الأديب أن يدلني على مفكر ينكر معه
أن شوقي بنى مجده وارتقى إلى سماء العبقرية والخلود في غير أعوامه الأخيرة بعد عودته من
المنفى في أسبانيا ؟ ومن من القدماء ياترى قلده شوقي في نظم الأغاني الخالدة التي كان لها
الفضل الأكبر في تهذيب أذواق الناطقين بالضاد في القرن العشرين ؟ ومن ذا الذي يقول : إن
روايات شوقي التمثيلية الثمان التي لم يسبقه إلى مثلها شاعر عربي آخر ، والتي نظمها بعد
عودته من الأندلس ، هي تقليد ظاهر للقدماء ؟ .

أما قول حضرة الدكتور : إن كل قصائده في أعوامه الأخيرة تقليد ظاهر للقدماء فهو
حري أن ينسب إلى مؤلفي الأفاصيح والمخرافات ، لا إلى مؤرخي الأدب العربي ؛ لأن كلمة
« كل » دقيقة الاستعمال جداً في التاريخ وقلما نجد لها في كتب المؤرخين المدققين ، ولا أنظن
الدكتور طه حسين يجهد هذه الحقيقة البسيطة ، وهو الذي كان أستاذاً للتاريخ القديم في
الجامعة المصرية قبل أن يصبح أستاذاً للأدب العربي فيها .

ألف شوقي بعد عودته من منفاه ، أي في مدة إثني عشر عاماً ونيف خمسة عشر مؤلفاً ،
أربعة أختاسها مؤلفات شعرية^(١) كما روى أمين سره السيد أحمد عبد الوهاب ؛ فهل لحضرة
الدكتور أن يدلنا على الكتاب الذي قلده شوقي القدماء ؟ اللهم إلا كتابه أسواق الذهب
الذي قلده القدماء في سجعهم ، وبذم من حيث سهولة اللغة ، وسمو الفكر والخيال خبذاً
لو أتبع الدكتور طه حسين الجدد طرق الجدد في الأدب ، ودعم كل حقيقة ذكرها بما
يؤيدها من البراهين ، والحجج الدامغة لأن الجدد لا يلبق بهم إرسال الكلام
على عواهنه .

ثم نرى الدكتور طه حسين ينمى في مقاله على شوقي عدم مقارنته خصومه ، وعدم
نهوضه لخاصة ناقد من قاده ، وأنا أرى في سكوت شوقي عن مناوئيه ، وإهماله أمرهم

(١) مؤلفاته المطبوعة : هي الشوقيات : جزءان ، وروايات مصرع كليوباترا ، ومجنون
ليلي ؛ وقميص ، وعلى بك الكبير ، وعنترة ، وكلها شعرية . ورواية : أميرة الأندلس النثرية ،
وكتاب أسواق الذهب النثرى . أما مؤلفاته التي سيباشر طبعها فهي كتاب عظمة الاسلام
(نثر) ، والشوقيات الجزء الثالث والجزء الرابع ، وروايتنا : السيدة هدى ، والبخيلة ، وكشكول
جامع لقصائد لم تنشر ؛ وقصائد سهلة للأطفال ، والأغاني الخ ، وربما استوعب الكشكول
وحده ثلاثة مجلدات .

أنجع وسيلة للرد على هؤلاء، لأن شوقي إذا انحدر من عليائه إلى مستوى خصومه ، وقارعههم مقارعة الند للند ، ينفه من شأنهم ، الأمر الذي كانوا يرجونه من وراء تلك المناوأة ؛ وهم لم يعترف إليهم الناس إلا عند ما بدأوا التعرض لشوقي وهاجموه من كل جانب مسرفين في النقد والذم ؛ ورغم سكوت شوقي ، فيه ذكركم ، وظل شوقي فوق عرش إمارته السامى الذى لم يهن ، ولم يرزعزع ، وها هو ذا شاعرنا الناب ، قد قضى فتهاقت الأدباء على رثائه والإشادة بذكوره وفضائله لأن الشعراء النابغين تبدأ حياتهم يوم يتغمدهم الله برحمته ، وكما مرت الشهور والأعوام على وفاتهم ارتفع قدرهم ، وظهروا للباحثين المنصفين نواح جديدة من عبقريتهم ونبوغهم ، ولنضرب لك مثلا : المتنبي الذى لم يسلم من خصوم ألداء حياً وميتاً ، ولم يعترف له بالامتياز على من سبقه ، وعاصره من الشعراء إلا بعد إذ قضى معاصروه ومناقضوه ، ووكّل أمر الكتابة عنه إلى أناس يعلى عليهم عقلمهم لا عائلتهم ، أناس يكتبون للتاريخ لا للترلف إلى زيد أو عمرو ، إكتساباً لرضى ، أو توصلاً إلى منعم ، وربما نال شوقي في حياته إعجاباً ، لم ينله سواه من شعراء الضاد الذين سبقوه ، وسنرى الآيات الحكيمية التى يتداولها الناس الآن من نظم شوقي يضطرد ازدياد عددها باضطراد البحث في شعره ، والأعوام المقبلة كفيلة بتحقيق ذلك ، وأظن حضرة الدكتور الأديب يقرنى على هذا الرأى .

ويختتم الدكتور طه حسين مقاله عن حافظ وشوقي بقوله: «ها أشعر أهل الشرق العربى منذ مات المتنبي ، وأبو العلاء من غير شك » ، فهذه الجملة أملاها حضرة الأديب دون تحفظ ، إذ ماهى الصلة والظروف التى تجمع شاعرى القرن العشرين بالمتنبي وأبى العلاء ؟ وما هو المقياس الأدبى الدقيق الذى نستطيع أن نقيس به شاعرية شاعر بآخر دون أن نضل سبيل العدل والإنصاف ؟ فالظروف التى عاش فيها شاعرانا غير الظروف التى عاش فيها المتنبي وأبو العلاء ، وعصر الآخرين غير عصر الأولين ، وهم يختلفون جداً من حيث الاتاج الأدبى قدراً ونوعاً ، هذا فضلاً عن أن كلا من هؤلاء الشعراء الأربعة ، لا يمكن أن يقارن بالآخر لكثرة التباين بينهم ، وربما نغمط بعض الشعراء الذين جاءوا بعد أبى العلاء حقهم إذا فضلنا عليهم «حافظ إبراهيم» ، وربما نغمط شوقي قدراً إذا فضلنا عليه أى شاعر عربى آخر ، ولو اتسع لنا المجال فى هذه المجالة لكننا أبدينا رأينا الصريح فى هذين الشاعرين مؤيداً بالبراهين والأدلة ، ولكننا ترك البحث عن حافظ إلى الأعداد القادمة من مجلة المعرفة الغراء ، وترك شوقي إلى المقال المفصل الذى سنكتبه عنه فى الكتاب الذى سيجمع فيه معظم ما قيل فى أمير الشعراء فى جميع الأقطار العربية ، والذى سنباشر طبعه قريباً .

ولا بد لي قبل اختتام المقال من إبداء رأى أظننى مصيباً فيه ، وهو : أن يترك إخواننا

المصريون الآن البحث في شعر شوقي ، والكتابة عنه إلى أقطاب الأدب العربي في الأفطار العربية الأخرى ؛ لأن العاطفة تملئ على أنصاره وخصومه من المصريين ، بحيث يساء إلى تاريخ الأدب العربي الذي يجب أن يكون منزهاً عن المحاباة والانتقام ؛ وأعترف أنني أسأت بقولي هذا إلى عدد من الأدباء المصريين المنصفين الكرام ، ولكنهم في نظري أقلية ، والقليل لا يقاس عليه ، والأدباء غير المصريين ، الذين تربطهم والفقيد أواصر الصداقة ؛ ولم يتأكل الحسد أفئدتهم ؛ هم في اعتقادي - أنزه في إصدار أحكامهم على شوقي من سواهم ؛ وها هو ذا الدكتور طه حسين الذي يعتبر زعيماً من زعماء الأدب يعترف بأن العاطفة أملت عليه ما كتب ، أما الفئة التي أتوسم فيها إنصاف الشاعر الراحل من كل نواحي أدبه ، فهي فئة الأدباء الذين ضربوا بسهم وافر في والشعر والنثر معاً ، لأن الشاعر أدري بفن القريض : حسناته ، وسيئاته من الناثر .

هذا ما عن لي كتابته من الملاحظات البريئة على مقال حضرة الدكتور طه حسين وجل من لا يخطئ .

محمد خورشيد

استدراك

سيدى الأستاذ المفضل

أشكركم على ما تقومون للعلم والأدب والثقافة الإسلامية والصحافة المصرية من خدمات جليلة ، وبعد فإني ألفت نظر حضرتكم إلى ما وقع في كتابتنا التي تنضلت بنشرها في عدد ديسمبر من « المعرفة » من الاختلاط بين آيتين من القرآن الكريم ؛ ويدفعنا ويدفعكم الحرص على كتاب الله تعالى إلى وجوب تصحيحها ؛ فقد جاءت الآيتان بالصحيفة رقم ١٠٠٧ على هذه الصورة : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

والصواب ما يلي :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون ؛ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ؛ ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

فترجو من حضرتكم أن تتكرموا باستدراك هذا الخطأ ، الذي نعتذر عن حصوله بأننا كنا نكتبه على عجل .

سيد أحمد فهى